السيرة النبوية لابن هشام

للدكتور محمد خلف الله احمد

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

تتمثل حيوية الفكر الإسلامى ونشاطه فى تلك الثروة الضخمة من الكتب التى أخذ المؤلفون الإسلاميون يكتبونها منذ أن بدأت نهضتهم العقلية فى الازدهار فى القرن الثانى الهجرى ، والتى سايرت ركب الحضارة طوال العصـــور ، وخلدت آثار العبقرية الإسلامية فى الفقه والتشريع ، واللغة والأدب، والتاريخ والرحلات والفلسفة والطب ، وسائر فروع العلم التى عرفتها الإنسانية إلى اليوم .

وتمتاز المكتبة الإسلامية بميزة لم تتوفر لسواها من المكتبات: ذلك أنها تستمد إلهامها ونموذجها من كتاب سماوى خالد، ضرب لها المثل فى البيان، وفتح أمام أصحابها آفاق المعرفة، ووجهم إلى الدرس والبحث . فما هو إلا أن استقرت الأوضاع فى عالمهم الواسع الجديد حتى عكفوا على دراساتهم فى شغف وجد ، وحتى سلكوا سبل التخصص فى ميادينها . ونظموا طرق جمع المعلومات فيها ، وأخذوا أنفسهم بشىء من النقد لما يجمعون ، فلم ينته القرن الثانى الهجرى حتى كانت نهضتهم التأليفية قد بدأت تؤتى ثمارها فى صورة كتب لاتزال - وستظل - عماد الباحثين فى الدراسات الإسلامية والعربية .

ومن الثمار الأولى لتلك النهضة كتاب « السيرة النبوية » الذى نعالجه اليوم تيمنا بصاحب « السيرة » صلوات الله وسلامه عليه ، ومتابعة للتاريخ الزمنى للمكتبة الإسلامية ، واعتزازا بكتاب إسلامى قديم شاركت « مصر » فى فضل تأليفه . فالكتاب يمثل جهود عالمين من السابقين فى تاريخ « المغازى والسير » : أحدهما ، محمد ابن اسحاق المدنى الذى توفى فى منتصف

القرن الثانى للهجرة ، والثانى عبد الملك ابن هشام المعافرى المصرى الذى توفى بمصر فى أوائل القرن الثالث ، فأما العالم الأول فقد جمع مادة السيرة من الأخبار والروايات التى كان يتناقلها مجتمع « المدينة » ويحفظها رواتها ومحدثوها ، وأضاف إلى ذلك ماجمعه اثناء زيارته « للاسكندرية » وسماعه من أهل الحديث بها ، وأما العالم الثانى - وهو ابن هشام - فقد أعمل فيها يد التنظيم والتلخيص والنقد : فاقتصر من مادتها الواسعة على ما كان خاصا بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ما كان منصبا على سيرته وحيـــاته وغزواته ، تاركا بعض ما أورده ابن اسحاق مما ليس للرسول فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شئ ، ولادعت إليه ضرورة التفسير والاستشهاد . مهملا بعض أشعار رواها ابن اسحاق وشك هو فى صحة نسبتها إلى أصحابها ، مستقصيا بعض التفاصيل مما جمعه أثناء إقامته فى مصر .

وقد أبى أهل المغرب الإسلامى إلا أن يأخذوا بنصيبهم من خدمة سيرة الرسول ، فانتدب عالم ضرير من علمائهم - هو « عبد الرحمن السهيلى » الذى عاش فى القرن السادس الهجرى - لكتابة شرح على سيرة ابن هشام سماه « الروض الآنف » وجمع مادته كما يقول من أكثر من مائة وعشرين مرجعا .

فالكتاب الذى بين أيدينا إذن يمثل محصول أربع مراحل فى التاريخ لسيرة الرسول صلوات الله عليه ، الأولى مرحلة السابقين الأولين من حفاظ السيرة ومدونى صحفها من أمثال « عروة بن الزبير » و « ابن شهاب الزهرى » ، والثانية : مرحلة الجمع الشامل لأخبار السيرة وكل ما يتصل بها من تاريخ وقصص وأدب على يد « ابن اسحاق » ، والثالثة مرحلة التنظيم والتلخيص على يد « ابن هشام » وتلك المراحل الثلاث تشهد بما كان لمفكرى القرنين الأولين من الهجرة فى المدينة ومكة والبصرة ومصر من عناية بسيرة رسولهم وبجمع مادتهـــا وتمحيصها ووضعها فى مكانها من حلقات التاريخ الإسلامى .

أما المرحلة الرابعة فهى مرحلة الشرح والتفسير التى ذهب بفضلها أهل المغرب الإسلامى . هـــذه الجهود المتتابعة أثمرت مرجعا هاما فى سيرة

الرسول اعتمد عليه المؤرخون الاسلاميون خلال العصور ، كما اعتمد عليه كتابنا المحدثون من أمثال « طه حسين » و « العقاد » و « هيكل » و « الحكيم » فى تاريخهم لحياة الرسول أو تحليلهم لعبقريته ، أو عرضهم لسيرته فى قالب قصصى جديد ، وقد أدرك الغربيون قيمة هذا الكتاب منذ القرن الماضى فترجموه إلى بعض لغاتهم كالألمانية ، وطبعوه مرارا وأضافوا إليه الفهارس والتعليقات ويقوم الآن مستشرق انجليزى معروف بترجمة الكتاب إلى الانجليزية وقد أوشك على الانتهاء من مهمته .

ومنذ عشرين سنة مضت قام ثلاثة من الباحثين المصريين بإعادة طبع السيرة النبوية لابن هشام ، فحققوها وقابلوا بين نسخها المطبوعة والمخطوطة وضبطوها ووضعوا فهارسها ، وبذلك سهلوا على القارئ العربى الحديث دراستها والرجوع إليها .

الكتاب يبدأ كما قلنا بايراد نسب الرسول منذ « اسماعيل » مبرزا صلة مصر بهذا النسب من طريق « هاجر » أم إسماعيل التى نشأت فى « دلتا مصر » ومن طريق « مارية » التى تسراها الرسول فولدت له ابنه ابراهيم ، والمروى أنها نشأت فى صعيد مصر ، ويذكر الكتاب بعض الأحداث والظواهر المشهورة فى تاريخ الجاهلية كقصة سد مأرب واعتناق تبع ملك اليمن النصرانية وقصة أصحاب الفيل وغيرها مما وردت إلى الكثير منه أشارات فى القرآن ، وهو يفصل فى بعض هذه القصص تفصيلا أفاد منه من جاء بعده من المفسرين والمؤرخين: كالذى فعل فى قصة « الفيل » إذ بدأها من غلبة أبرهة على اليمن ، وبنائه الكنيسة التى أراد أن يصرف إليها حج العرب ، وعزمه على هدم الكعبة بيت الله الحرام ، وما كان بينه وبين عبد المطلب من لقاء وحديث ، وماوقع لأبرهة حين هيأ فيله وعبأ جيشه ، وتهيأ لدخول مكة ، وماحدث للجيش المغير ، إذ أرسل الله تعالى عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار دقاق يحملها ، لايصيب منهم أحدا ألا هلك ، فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا وراحوا يتساقطون هنا وهناك وأصيب « أبرهة » فى جسده فأخذ ينتثر . ويذكر « ابن

اسحاق ، هنا أول مارؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب كان ذلك العام .

فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كان مما عد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله مارد عنهم من أمر الحبشة فأنزل فى ذلك سورة الفيل . ويستمر الكتاب فيفسر ألفاظ السورة .

ويروى ابن اسحاق فى آخر هذه القصة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين متعدين يستطعمان الناس .

ثم يورد نماذج مما قيل من الشعر فى هذه الحوادث بعضه لأمية بن أبى الصلت وبعضه لشعراء إسلاميين كالفرزدق وابن قيس .

هذه التفاصيل لها أساسها التاريخى ، ومن الراجح أن القصص قد اختلط فيها بالتاريخ ، ولكنها على أية حال تفيد الباحث فى التفسير وفى الأدب وتعطى صورة من أحداث البيئة العربية فى المرحلة التى ولد فيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه . ثم يستمر بنا الكتاب فى تتبع النسب النبوى من « معد » إلى « محمد » ويعطينا معالم من نشأته ، وخروجه مع عمه أبى طالب فى تجارته إلى الشام ، وما كان لهذا الركب من أمر مع « بحيرا » الراهب ، وما نصح به الراهب أبا طالب إذ قال له « ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغينه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده » ، ويتناول الكتاب الأحداث التى تتصل بحياة الرسول قبل بعثته ، كحرب « الفجار » التى اشترك فيها وهو فى حوالى الخامسة عشرة من عمره . ثم يقص علينا أمر خروجه فى تجارة خديجة إلى الشام وزواجه منها وهو فى سن الخامسة والعشرين ، وحديث « خديجة » بشأنه مع « ورقة بن نوفل » وبناء الكعبة واختلاف قريش فيمن يضع الحجر الأسود ، وتحكيمهم محمدا فى هذا ، وما كانت عليه الكعبة قبل البعثة فى مظهرها ومساحتها وصورتها ، وما سبق البعثة من أمور وظواهر كانت كالطلائع لها ، وإلى بعضها أشار القرآن الكريم . أما سيرة الرسول من أول البعثة فالكتاب يتبع منهجا مفصلا ، جاريا على نسق الحوادث والغزوات وتتابعها ، وما نزل فى كل حادثة من قرآن ، وما قيل فيها من شعر ، ومن اشترك فيها من الأشخاص ،

وما أثر عن الرسول فيها من قول أو عمل ، وما صاحبها من التشريع والأحكام ، وما لابسها من العهود والمواثيق ، وما سجل الرسول وأصحابه وأنصاره فيها من ضروب البسالة والإقدام ، وما امتحن به المسلمون أحيانا من بلاء أو هزيمة ، وما وضع الرسول من الأسس والقواعد للدولة الإسلامية الجديدة ، وما رسم لها من الخطط المستقبلة ، التى تولى تنفيذها خلفاؤه من بعده . وهكذا نجد أنفسنا أمام سجل واف لحياة تلك الشخصية العظيمة ، التى غيرت وجه التاريخ ، وأخرجت للعالم حضارة إنسانية راقية تقوم على دعائم العقيدة والمعرفة والفضيلة والأخوه ، وهذا السجل يستمد مادته من مصدر لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن ، ومن الأخبار التاريخية والقصصية والأدبية التى حفظها الرواة وتناقلوها ، حتى أوصلوها إلى عهد التدوين والتأليف ، وكتاب السيرة النبوية على هذه الصورة يهيء - فى نظرى - أداة من أدوات التربية الإسلامية الناجحة التى تنفع الشباب فى دور فتوتهم ورشدهم ، فهى تصلهم بحياة الرسول فى طريقة محببة تجمع بين القرآن والتاريخ والقصص والأدب . وكل ما تحتاجه أن يقوم باحث حديث فيعرضها من جديد عرضا منظما ، يناسب تفكير العصر الحاضر ، ويربط بين بعض هذه النواحى والبعض الآخر ، ويعدها لأن تكون غذاء صالحا لعاطفة الشباب الدينية ومعارفه التاريخية وذوقه الأدبى .